المحاضرة الرابعة: صورة المدينة في الشعر المعاصر

مهاد نظري:

من مظاهر جمالية توظيف المكان في الشعر العربي المعاصر اعتمادا على التزمين(Temporalisation) بوصفه إجراء يهدف إلى "إفراغ البنية الدلالية البسيطة في قالب زمني بهدف إلغاء بعدها السكوني وأولى تجليات التزمين تظهر وبشكل مبكر من خلال التحول من العلاقات إلى العمليات" [1]؛ أي الانتقال بالحياة إلى واقع تحدّه حدود زمنية مُشَكلَة فنيا. ولمّا كان النص بعامة عالم من "العلاقات المتشابكة يلتقي فيه الزمن بكل أبعاده حيث يتأسس في رحم الماضي، وينبثق في الحاضر ويؤهل نفسه كإمكانية مستقبلية للتداخل مع نصوص آنية"[2]

يُبنى اختيار العنوان في اعتقاد أحمد مداس على توجه لساني سواء تعلق الأمر بالتركيب النحوي أم بالتعالق الدلالي وكلاهما له وجوده الفاعل في عملية التحليل، فناتج الأول بنية عميقة ترتسم معها دلالات أفق التوقع الذي يوافق مضمون النص أو يعاكسه، وحاصل الثاني تعالق العناوين ونصوصها وفي الحالتين يبدو عنصر الدلالة ظاهرا [3] "فإذا كان النص هو موضوع للقراءة؛ فالعنوان مثل اسم الكاتب موضوع للدوران، وبدقة أكبر موضوع للتحادث (Objet de conversation)"[4].

وهذا ما يجعل من النص الشعري المعاصر تعبيرا عن أزمة وجودية تمخضت عنها الأحداث المسرودة في ثناياه، فزادت محطات الحياة العمرية كشفا لمعالمه.من هنا يتضح أن توظيف عنوان محطة تركيبية بين زمنين؛ زمن الكتابة وزمن آخر بدأ يتشكل تدريجيا هو زمن القراءة، في انفتاح للنص الشعري على التأويل وتعدد الدلالة، انطلاقا من استحضار سياقات نصية أخرى مرتبطة من حيث مضامينها بتشكل صورة المدينة من حيث هي

---

[1] سعيد بنكراد: مدخل إلى السميائية السردية، ط02، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003، ص86.

[2] عبد الله الغذامي: الخطيئة والتكفير(من البنيوية إلى التشريحية)، ط4، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1998، ص16.

[3] ينظر: أحمد مداس: لسانيات النص، ط01، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2007، ص44.

[4] عبد الحق بلعابد: عتبات(جيرار جينيت من النص إلى المناص)، ص73.

اكتشاف شعوري وفضاء لقراءة سيميائية بوصفها نسقا من العلامات يتداخل في نسيجها الخطاب والممارسة الاجتماعية ومجموع المعطيات المتجانسة [1].

إن ماضي الشاعر المعاصر أكثر ارتباطا بالتجربة "المنقضية من الناحية الزمنية، ولا يمكن الاكتفاء بالماضي هنا كمجموعة من الأحداث الخاصة أو العامة مثلما لا يصح النظر إليه فقط كواقعة (وقائع) ولت وانقضت؛ بل هو أيضا رؤية أو زاوية نظر تحايث عملية التفكير في التوجه نحو الماضي بنزوع يرمي إلى استعادته" [2] هكذا يعد فهم الحياة ومحاولة إدراكها من منظور إيديولوجي تأملا في واقع التجربة الحياتية، وإعادة قراءة لأحداث طوتها السنون، صار بالإمكان تجسيدها خطيا، اجتهد صاحبها في إقناع قارئه

بذا يستثمر الشاعر المعاصر قدرته على توظيف المكونات النصية بأبعادها الجمالية الكامنة في امتزاج الموقف والتأمل والفكرة ضمن مجال الكتابة الإبداعية بطريقة تخالف ما هو سائد في عرف المواضعات المعتادة؛ إذ يسعى الشاعر لاستمالة القارئ ولفت انتباهه إلى ما يتوارى من دلالات محجوبة وراء بنية العنوان، فهو لا يتجلى معنى إلا ليزداد عمقا وتعددا.

يبدو المكان، انطلاقا من كونه ذا مقومات مؤسسة لمشروعيته، مقرونا بالسؤال (أين؟) الذي يحيل على طبيعته الحسية المدركة، ويبقى فهم حقيقته قائما على مدى وعي جزئياته وعناصره؛ تلك التي تعكس تفاعل المرء الثقافي والتاريخي والديني والسياسي والاجتماعي. ويمكن النظر إلى المكان بناء على هذا المفهوم بوصفه نظاما له امتداداته الاجتماعية والاقتصادية والعاطفية، تنتظم فيه العلاقات الإنسانية، "فهو المأوى والانتماء ومسرح الأحداث، حتى إن المكان الذي ينتمي إليه الإنسان يتخذ في بعض الأحيان طابعا مقدسا؛ لأن العلاقة بين الإنسان والمكان علاقة متجذرة" [3] لما يثيره من مشاعر الانتماء وذكريات مواطن النشأة والمتقلب، ليظل المكان مقرونا بالوجود الآدمي الأول حيث رحم الأم وانتهاءً بقبر يضمه بعد موته، والفاصل بينهما تجليات لأمكنة متنوعة (النشأة، اللعب، الإقامة، الدراسة).

---

(1) voir: Raymond Ledrut: L'espace en question , Edition anhropos, Paris, 1976, p188.

(2) عبد القادر الشاوي: الكتابة والوجود- السيرة الذاتية في المغرب، ص49.

(3) موسى ربابعة: جماليات الأسلوب والتلقي، ط01، دار جرير، للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2008، ص74.

وإذا كانت لواقعية المكان مرجعياتها السياسية والتاريخية والجغرافية؛ "فإن حضوره في النص الأدبي يجعل منه متخيلا يتجاوز الواقع، ويحول المكان إلى فكرة؛ لأنه ينتقل من وجود مادي إلى وجود لغوي، وتتحول صورته من بُعد تسجيلي إلى بُعد متخيَّل "[1] بقيم جمالية وأبعاد رمزية تنفي عنه الصفة السكونية الماثلة في طبيعته المادية الجامدة، التي سيكون مآلها الاندثار ما لم تعرض عناصرها اعتمادا على وجهة نظر توجهها، ولغة في نص شعري تؤطرها.

وما من شك، في أن التجربة الإبداعية تمنح جغرافيا المكان امتدادا يتعدى الأطر الهندسية الخاضعة غالبا لحدود الضبط ودقة الحسابات، يضيف لها المرء قيمة وجدانية فيبدو مؤثرا في المكان أو متأثرا به، لتصطبغ علاقته به بصبغة نفسية تقوده "إلى دروب مختلفة من المعرفة، والإنسان لا يحتاج إلى رقعة فيزيقية جغرافية يعيش فيها، بل يميل كذلك إلى البحث لنفسه عن رقعة من الأرض يضرب فيها بجذوره وتتأصل فيها هويته"[2].

إن عملية إدراك المكان تتأسس فنيا على نقل تفصيلاته الواقعية ومحاولة استرجاع وقعه وذكراه، وهو ما يضع الذات المبدعة في إطار مكاني يمثل "بالنسبة إليها الـ(هنا)، في مقابل الحيز الذي تضع فيه الآخرين والذي يمثل بالنسبة إليها الـ(هناك)، يدخل في نطاق الـ(هنا) الأهل والأقارب والأصدقاء والمقربون[...] بينما يدخل في نطاق الـ(هناك) الأغراب والأباعد"[3]

بذا تربط هذه الذات انتماءها بالمكان الذي تتقلب فيه مدينة أو قرية أو وطنا أو عالما، وهو ما يمثل انتقالا متدرجا للمكان من أفق فردي محدود ومقرون بتجارب الأنا وقد اتخذته متقلبا لها، إلى أفق منفتح على تعدد تجليات المكان وعلاقاته الوظيفية بالشكل الذي تتضمنه التخطيطة الآتية:

---

[1] جمال مجناح: دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970، رسالة دكتوراه(مخطوطة)، جامعة باتنة، الجزائر، 2008، ص75.

[2] نبيلة إبراهيم: فن القص في النظرية والتطبيق، ص140.

[3] سيزا قاسم: القارئ والنص (العلامة والدلالة)، ص40.

المكان محدود بحدود مادية (حسية المكان/ الانتماء).

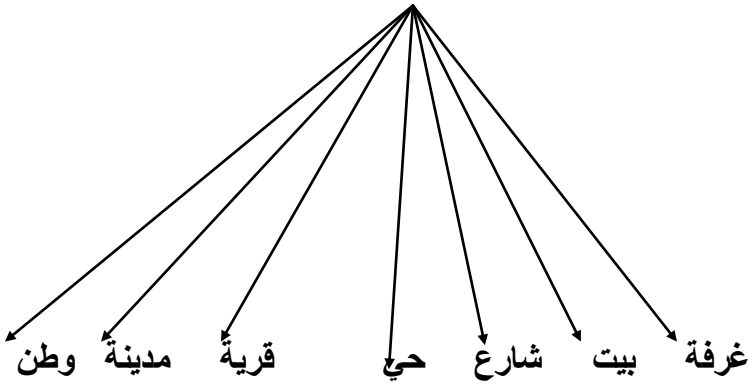

المكان مفتوح على أفق وظيفي/ علائقي(جمالية المكان وأبعاده).

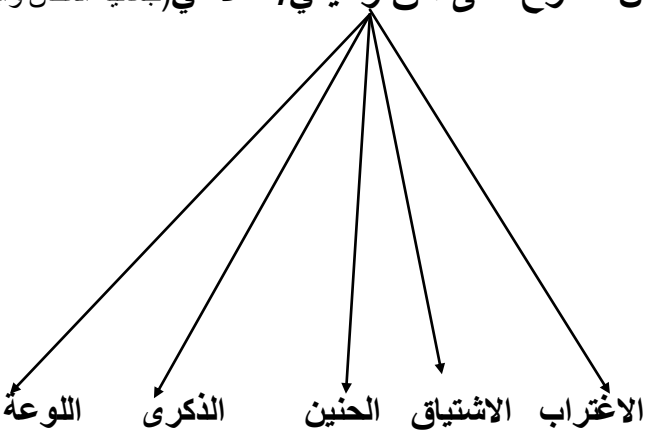

فالمكان، انطلاقا من هذا المخطط، مساحة جغرافية تحقق فيه الذات وجودها، لذا يكون اختيارها له بما يتلاءم وطبيعة إحساسها به، فكلما تنوعت الأمكنة صحبها شعور متجدد، تزداد حدته مع انتقالها إلى كيان يراه المرء ويتحسسه فيكون له وجود في حياة الأنا، لترتسم صورته الواقعية في الذاكرة.

والشاعر المعاصر يجعل من تأملاته للمكان وسيلة لتحويله إلى مجال قراءة/ نصي، متضمن للتقاطبات المكانية ؛ التي تصنف الأمكنة وتبحث في دلالاتها، انطلاقا من شكل ثنائياتها الضدية المعبرة عن العلاقات والتوترات بين قوى وقيم متعارضة، وتبعا لهذا التصور يمكن تصنيف الأمكنة إلى ثنائيات؛ منها مفهوم المسافة(قريب/ بعيد)، أو الحجم(صغير/ كبير)، أو الاتساع(محدود/ لا محدود)، أو مفهوم الشكل(دائري/ مستقيم)، أو الحركة(جامد/ متحرك، اتساع/ تقلص، اتجاه عمودي/ أفقي)، أو مفهوم العدد(مسكون/

مهجور)، أو مفهوم الإضاءة(مضاء/ مظلم، أبيض/ أسود) [1]. وتقريبا لصورة هذه التقابلات يمكن حصرها في الجدول الآتي:

	الحجم	الاتساع	الشكل	الحركة	الإضاءة	العدد	المسافة	الاتصال
المكان	صغير/ كبير	محدود/لا محدود	دائري/ مستقيم	جامد/ متحرك	مضاء/ مظلم	مأهول/ مهجور	قريب/ بعيد	منفتح/ منغلق

غير أن نقل صورة المكان لا يكون بطريقة إسقاطية لأبعاده ودقة قياساته على سطح الورقة؛ بقدر ما هو استحضار للمكان في كليته، استعانة بالتخيل العقلي الذي يعد بمثابة صورة انعكاسية يتم تشكيلها للأشياء والمواضع التي يختبرها الإنسان على نحو حسي [2]، يؤدي إلى بناء عالم ممتد على مساحة زمكانية، يرتبط بها الأديب ارتباطا عضويا لا ينفصل عن المكان إلا ليعود إليه.

وترتبط جغرافيا المكان بنوعه (غرفة، مكتبا، شارعا) وحالته (قديم، جديد) ووضعيته (مستغل، غير مستغل)، وشكله وموقعه؛ فالدار احتكاما إلى هذا المفهوم "مكان للإقامة والنوم والاجتماع والسمر، بينما البيت هو للإقامة ليلا فقط؛ أي إنه لا يتسع في الأصل إلا لهذا الغرض، ومن هنا كان أصغر حجما من الدار وأقل مقدارا من الناحية المعمارية والاجتماعية"[3].

وكلاهما يحتويهما مكان أوسع هو الحي بوصفه نواة، أيضا، للقرية والبلدة والمدينة، ومثل هذه الأمكنة تتسم بالدفء والحنان والسلام والمحبة وهي تبقى عالقة في الذاكرة أطول مدة ممكنة؛ لأنها نقطة البدء وأصل الأمكنة الأخرى[4]

---

[1] ينظر: محمد بوعزة: تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)، ص101.

[2] ينظر: رافع النصير الزغلول، عماد عبد الرحيم الزغلول: علم النفس المعرفي، ص197.

[3] شاكر البابلسي: جماليات المكان في الرواية العربية، ط 01، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لينان، 1994، ص142.

[4] ينظر: المرجع نفسه، ص52.

أما المدينة فتمثل فضاء حضريا مفتوحا على قيم رمزية، حيث تتقاطع مشاهد الساحات والمقاهي والمنازل والوجوه والروائح والأصوات، حاملة "في نسيجها العمراني وجملة مركباتها خطابا مضاعفا هو في جزء منه خطاب مباشر يستفز الحواس باستمرار ويرشدها إلى طبيعة الأشياء والموجودات وهو في جزئه الآخر خطاب ملتو خفي يتوجه إلى أهم الملكات كالخيال والعقل والذاكرة والقلب وبفضل هذا الخطاب المزدوج تدرَك المدينة في بعدها المادي المحسوس وبعدها القيمي الوجداني التجريدي"[1].

لكن، وانطلاقا من فرضية تمظهر المكان في مضامين الكتابة الشعرية فإنها ذات صلة بمعاني المغادرة والارتحال الذي يمثل "خطابا وصفيا لأنها تضع في الاعتبار الأول البعد المكاني في زمن معين" [2] يصطبغ بألوان المشقة وصنوف الصعاب، حيث يقيم الشاعر لذاته عالما يصور فيه علاقته بالمكان، على الرغم من غيابه عن ناظريه حين تعاد صياغته خطيا؛ إذ يخضع لتقنية بناء جديدة، أساسها تخيل ما يحيط بالمواقف الحياتية من تفصيلات مكانية يتم استدعاؤها، وهذه العملية وإن كانت معتمدة بالأساس على عنصر القصدية في تجلية أمكنة واختزال أخرى، لا تخلو من ذوق فني يضفي رمزية على الأمكنة في علاقتها بالذات المبدعة.

ويمنح وصف الأمكنة في كتابات الشعراء المعاصرين حضورا لا يمكن فهمه بمعزل عن سياقاته التي أنتجته؛ لأن المكان الأكبر لدى شعراء القضية مثلا هو فلسطين/ القضية/ الوطن، فصار الوقوف على الأمكنة ذكرا وتوصيفا حاملا لدلالة الارتباط بالأرض؛ ومتضمنا في الآن نفسه معانيَ التشتت والضياع، وتحمل القدس في هذا السياق أكثر من دلالة، فهي مكان تاريخي بأبعاد دينية ومدينة لمّا تزل محل صراع بين أطراف متنازعة، وأرض ألهمت الأدباء والمبدعين فتغنوا بسحرها ودافعوا عن اسمها المنطبع بطابع طقوسي خاص، حتى عُدّت مركز تجاذب ثقافي متأسس "على ذاكرة الكتابة[...]وهو بهذه الصورة يأتي مكانا مختصرا ومكثفا، يقحم موضوعاته في متاهات الحنين والغربة، وفي جدليات الحضور والغياب، وفي ثنائيات الوطن والأرض، وفي تأملات الألفة

---

[1] عبد الصمد زايد: المكان في الرواية العربية، ط01، كلية الآداب، منوبة، تونس، 2003، ص110.

[2] سعيد يقطين: السرد العربي- مفاهيم وتجليات، ص196.

والموت"[1]. تقول فدوى: "كنا نحس بقوة انتمائنا، وبنبض جذورنا الفلسطينية في الأرض العربية المغتصبة عنوة واقتدارا، والتي هي أسيرة الآن في أيدي غرباء لا جذور لهم فيها ولا أصول، يتصدون لنا آمرين ناهين، منزعجين من وجودنا هناك"[2]

لقد ظل بذل النفس جزءا من حياة الإنسان الفلسطيني، و"منطق حياته ومعناها وقيمتها، عبر رحلة العذاب الطويلة داخل الزمن الصعب، وهو في المواجهة الصعبة مع أزمة وجوده، لا يجد بين يديه وسيلة أفضل من حياته ليتخذ من هذه الحياة فرصة للسعي إلى الخلاص والحرية، وانتزاع الوطن من فم الحوت" [3]، في التزام بالباعث على التحرر والانعتاق.

ويبدو، أن جمالية المكان بناء على ما مضى قيمة ماثلة في النص الشعري المعاصر وتستمد حضورها من اقتران الذكرى بجزئيات الأمكنة نفسها، وطريقة توزيعها وذكرها من جهة، ومضامينه التي تتحول إلى فضاء فني يعلو على أن تدركه الحواس إدراكا ماديا؛ لأن تلقيه يكون نفسيا وانطباعيا أو حدسيا مبنيا على معرفة تلقائية [4]، وليس مجرد هياكل لا روح فيها ولا تأثير.

المصادر التمثيلية: يمكن التمثيل لفحوى المضمون النظري بالمصادر الآتية:

محمود درويش: لا تعتذر عما فعلت
فدوى طوقان: وحدي مع الأيام
محمود درويش: حالة حصار
محمود درويش: جدارية
صلاح عبد الصّبور، حياتي في الشّعر

---

[1] جمال مجناح: دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970، ص80.

[2] فدوى طوقان: الرحلة الأصعب، ص18.

[3] المصدر نفسه، ص148.

[4] ينظر: محمد الأمين بحري: بنية الخطاب المأساوي في رواية التسعينيات الجزائرية، رسالة دكتوراه(مخطوطة)، جامعة باتنة، الجزائر، 2009، ص17.